كلمة البروفسور فرانسوا بوادك اليسوعيّ
رئيس جامعة القدّيس يوسف في بيروت

«الجامعة في مواجهة مخاطر عالمٍ يتجرّد من إنسانيَّته»

لمناسبة عيد شفيع جامعة القدّيس يوسف في بيروت
يوم الخميس الواقع فيه ١٩ آذار (مارس) ٢٠٢٦

في كنيسة مار يوسف للآباء اليسوعيين

سعادة السفير البابويّ في لبنان المونسنيور باولو بورجيا Paolo Borgia،

معالي الوزير السيّد جو صدّي، رئيس المجلس الأعلى لجامعة القدّيس يوسف في بيروت،

حضرات السيّدات والسادة الوزراء والسفراء والنوّاب،

حضرات السيّدات والسادة أعضاء المجلس الأعلى في الجامعة،

حضرة الأب مايكل زاميط اليسوعيّ، الرئيس الإقليميّ للرهبنة اليسوعيّة في الشرق الأدنى والمغرب العربيّ،

حضرة الأب سليم دكّاش اليسوعيّ،

معالي الوزير عبّاس الحلبي، رئيس اتّحاد جمعيّات قدامى وخريّجي جامعة القدّيس يوسف في بيروت،

حضرات الأساتذة وأعضاء الهيئة الإداريّة والطلاّب الأعزّاء،

حضرات السيّدات والسادة، مع حفظ الألقاب،

أيّها الأصدقاء الأعزّاء،

قبل عامٍ واحد، شرّفنا الأب أرتورو سوزا Arturo Sosa، الرئيس العامّ للرهبنة اليسوعيّة، بحضوره ومشاركتنا الاحتفال بالذكرى المئة والخمسين لتأسيس جامعتنا، مانحًا إيّانا فرحًا كبيرًا. ولم تكن زيارته آنذاك أمرًا بديهيًّا، إذ إنّ الوضع الأمنيّ في البلاد خلال الأسابيع التي سبقت الزيارة كان لا يزال غير مستقرّ. واليوم نجد أنفسنا أمام الوضع نفسه، وهو ما يحول دون أن نحتفل بعيد شفيع جامعتنا كما كنّا نتمنّى. منذ عام، جرت أحداث كثيرة في البلاد وفي المنطقة وفي العالم، غير أنّ الوضع لم يتحسّن، بل ازداد سوءًا. في خضمّ الأزمة الإنسانيّة والأمنيّة التي نتخبّط فيها، تحرص جامعتنا على الوقوف إلى جانب جميع أفراد مجتمعها الجامعيّ المؤلَّف من الطلاّب، والأساتذة، وأعضاء الهيئة الإداريّة، ممّن تضعهم الظروف الراهنة في صعوباتٍ بشكلٍ أو بآخر. غير أنّ استجابة جامعتنا للتحدّيات الراهنة لا يمكن أن تقتصر على الدعم الطارئ والضروريّ فحسب، بل ينبغي أن تكون على مستوى أوسع وأعمق.

كما تعلمون، أصبحت خطابات رئيس الجامعة في عيد شفيعها، منذ أكثر من خمسين عامًا، موعدًا معتادًا، بل منتظرًا، يشكّل جزءًا من حياة الجامعة التي تعبّر، في لحظة محدّدة من تاريخها، عن التساؤلات والآمال والقناعات، لا لرجلٍ يتحمّل مسؤوليّة فحسب، بل أيضًا برأيي، وبشكلٍ واسع، لمجتمعٍ جامعيّ بأسره، وربّما حتّى، في بعض اللحظات، لبلدٍ كامل. خلال

الأشهر الماضية، رغبتُ في إعادة قراءة خطابات الذين سبقوني في هذه المهمّة. ولن أخفي عليكم أنّ ذلك استغرق منّي وقتًا غير قليل! ولم يكن الهدف أن أستلهم منها بعض الأفكار – وإن كان ذلك ممكنًا! – بل كان هدفي قبل كلّ شيء أن أستشعر، من خلال الموضوعات التي طُرِحَت، والكلمات التي استُخدِمَت – مثل الثقافة، والضمير، والمقاومة، والمبادئ الديمقراطيّة، والحريّات العامّة، والعيش المشترك، وكذلك الابتكار، والجرأة، والثقة، والتضامن... –، ومن خلال الحدس ومشاعر الاستياء، والمفارقات والتأكيدات التي تمّ التعبير عنها، أحدَ الأماكن المميّزة التي تنبض فيها حياة جامعتنا، وأحدَ الخطوط العريضة التي تشير إلى المعنى، والتطلّعات، وعلّة وجود جامعتنا.

ثمّة كلمات، وثمّة أيضًا الصور التي تبقى راسخة في الذاكرة. ومن دون ادّعاء الإحاطة بكلّ شيء، وفي اللحظة التي أتوجّه فيها إليكم اليوم للمرّة الأولى في عيد القدّيس يوسف ، وفي هذا الظرف الخاصّ، اسمحوا لي أن أشارككم تأثرا لا يزال حاضرًا في ذهني وهو تأثّر الأب دوكرويه Ducruet، رئيس جامعتنا من العام ١٩٧٥ إلى العام ١٩٩٥؛ الذي كان يخنق صوته عندما يتحدّث بشغف عن وضع البلاد وظروف نهوضها من جديد. كان ذلك في ١٩ آذار/مارس ١٩٩٤، في القاعة التي تحمل اليوم اسمه في حرم مار روكز، وأمام رئيس الجمهوريّة إلياس الهراوي، ضيف الشرف في الاحتفال بعيد شفيع الجامعة. كنتُ آنذاك يسوعيًّا شابًّا. ولم أنسَ ذلك التأثّر الذي حاكاني، أكثر من أي خطابات عظيمة، عن جامعتنا ورسالتها في خدمة لبنان.

ثمّة أيضًا صورة أخرى تسكنني هذا المساء، هي ذكرى مشهدٍ عنى لي الكثير، بطريقة مختلفة أيضًا، عن مشروع جامعة القدّيس يوسف في بيروت وروحها. كان ذلك عام ٢٠٠٠، خلال الاحتفالات بذكرى مرور ١٢٥ عامًا على تأسيس الجامعة. في اختتام تلك الأيّام الاحتفاليّة، في ٢٤ حزيران/يونيو، كم كان اعجابي كبيرا حين حضرت، بفرحٍ كبير، عرضًا رائعًا لرقصة التانغو في وسط المدعوّين. كانت الفكرة من الأب سليم عبو وقلبه الأرجنتينيّ. لقد كانت رقصة التانغو تلك، بما أثارته من دهشة وما أحدثته من تحوّل، وبما حملته من إيقاعات جديدة وما فتحته من آفاقٍ رحبة، تعبّر خير تعبير عن تلك الحياة والآفاق المفتوحة التي ينبغي للجامعة أن تحتفل بها، وأن تشجّعها وترافقها.

لقد مرّ أكثر من خمسة وعشرين عامًا منذ تلك الأمسية التي لا تُنسى. من خلال كلّ المِحَن والأزمات والحروب التي رزح لبنان تحت وطأتها ولا يزال يمرّ بها، وعلى الرغم من كلّ خيبات الأمل والتعب والإرهاق، لم يتوقّف نبض الحياة عن الخفقان في جسد جامعتنا

وقلبها. وقد رغب الرؤساء الذين تعاقبوا على حمل نصيبهم من أعباء كلّ يوم في أن يكونوا في خدمة هذه الحياة. كانت هذه حال الأب شاموسي Chamussy، ثمّ خليفته الأب دكّاش، الذي يسعدني بشكلّ خاص هذا المساء أن أحيّيه باسمكم جميعًا. منذ أكثر من شهرين، ازداد إدراكي يومًا بعد يوم لحجم العمل الذي أُنجز خلال السنوات الماضية هذه، وغالبًا ما تمّ ذلك في الخفاء وفي إنجاز المهامّ المعقَّدة. كما أكّدت لي هذه الأسابيع أيضًا أنّه لا توجد رؤية مثمرة إلّا إذا كانت مشتركة ومُتَّفَق عليها. فلا تكون هناك جامعة إلا إذا استندت إلى جميع مواردها البشريّة والفكريّة والروحيّة، في تنوّع المواهب والوظائف. ولا توجد جامعة إلا إذا كانت بالفعل جماعة حقيقيّة يشعر فيها كلّ فرد بالاحترام والتشجيع، في خدمة مشروع يتجاوزها، ويعيش الجميع فيها بروح واحدة.

ومن ثمّ، يتعيّن على الجامعة، في كلّ عصر، أن تقوم بممارسة هذا التحديث، وإعادة صياغة مشروعها بصورة متجدّدة. إنّ التفكير في رسالة جامعة القدّيس يوسف التي يتوجَّب علينا جميعًا رعايتها والحفاظ عليها، وإعدادها للمستقبل، يفترض دائمًا أن نتساءل عمّا نعيشه نحن، وعمّا يحدث في هذا العالم. وهذا يقتضي ألّا ننغلق على أنفسنا ضمن دائرة مألوفة ومطمئنة، بل أن نمتلك القدرة، بل قبل ذلك الرغبة والشوق للقاء الآخر المختلف، والإصغاء إلى ما يتحرّك ويتلمّس طريقه، أحيانًا بشكل غير واضح، في عقل الإنسان وقلبه كما في التحوّلات التي يشهدها العالم. كما يقتضي ألّا نخشى ما تفرضه الضرورة من تجدّدات وتحوّلات.

كيف نفكّر اليوم فيما نعيشه، وفي موقعنا ضمن التاريخ؟ يمكن أن نستحضر هنا هذا التمييز المعروف الذي أشار إليه شارل بيغي Charles Péguy في العام 1910 بشأن التاريخ، بين الفترات والعصور[1]، بين أوقات انتقاليّة تخلو من أحداث أساسيّة، وبين العصور السريعة والخلّاقة التي تفرض شكلًا على مصير البشريّة، وتثبّته ربّما لفترة طويلة. وفي وقت لاحق، في عمله الكبير الزمن والسرد، هذا البحث الضخم المخصَّص للنظريّة الأدبيّة[2]، سلّط بول ريكور **Paul Ricoeur** ضوءًا جديدًا على مصطلح ثالث، وهو **الحدث**. فبالنسبة إليه، للحدث بُعد تاريخيّ، وله معنى من منظور المستقبل. لكنّه، وإن كان يحدّد المستقبل، فإنّه يحدّد أيضًا الماضي، بمعنى ما، لأنّه يُنتج إطار تفسيره الخاصّ ويؤثّر في قراءتنا لما حدث في الماضي.

1. *Notre jeunesse*, 1910.
2. P. Ricoeur, *Temps et Récit*, tome 1, Paris, Le Seuil, 1983, 324 p.

لا شكّ أنّ هذه التأمّلات الفلسفيّة، وهذه المفاهيم التفسيريّة، وهذه التمييزات، يمكن أن تكون موضوع نقاش وجدل. لا شكّ أيضًا أنّ الأمور أكثر تعقيدًا وتشابكًا، لأنّنا نعيش في أزمنة غالبًا ما تتعايش وتتقاطع. وربّما تبدو لنا، ببساطة، هذا المساء مجرّدة قليلًا، بعيدة عن فهمنا للواقع، خصوصًا في الفترة المؤلمة والمجهولة والمليئة بالقلق التي نعيشها. ومع ذلك، يبدو لي أنّها تدعونا إلى عدم السماح لأنفسنا بأن نُحمَل ببساطة على أمواج الأحداث التي نخضع لها. علينا باستمرار محاولة تمييز علامات الأزمنة، وإعادة قراءة ما يحدث وما يصيبنا، وتحديد ما هو مهمّ فيما وراء زبد الإعلام اليوميّ، وأخذ المسافة اللازمة لفهم ما يجري بعيدًا عن الشائعات غالبًا الزائفة، والخطابات المؤامراتيّة، والفهم المُبسَّط والمُعَدّ مسبقًا، ومحاولة رسم طريق للمعنى في كلّ ذلك. يمكننا أن نضيف هنا أن معنىً الحدث يكمن في جوهر الرسالة البيبليّة. أسوةً بتاريخ كلّ فرد، فإنّ التاريخ الروحيّ للعالم قائم على الأحداث. والأهمّ ليس في ترتيب ثابت منذ الأزل، بل فيما يحدث من خلال الفعل المشترك بين لله والبشر.

لا أعرف كيف يمكن وصف الأزمنة التي نعيشها، لكن ما أعلمه، وما نعلمه جميعًا، وما نشعر به، هو أنّها أزمنة من عدم اليقين والرجاء، أزمنة من العواصف العاتية والأسس الضروريّة، أزمنة تدفع إلى اتّخاذ خيارات، وتتطلّب الثقة والجرأة والصلابة اللطيفة. وما هو مؤكّد أيضًا، هو أنّ الجامعة، اليوم، كما في الأمس، وربّما أكثر من الأمس، لا يمكنها أن تكتفي بمراقبة مرور الزمن من دون محاولة فهم تحدّياته، ومن دون محاولة امتلاك وعي واضح لما كان الفيلسوف كارل ياسبرز Karl Jaspers يسمّيه «الوضع الروحيّ لعصرنا» بمعناه الواسع، في العام ١٩٣١، في سبيل التموضع بطريقة إنسانيّة جدًّا وللتحدّث تحديدًا إلى الإنسان. في مواجهة تصاعد التطرّف العلميّ وفقدان المعنى، كان ياسبرز يحذّر حينها من أنّ الإنسان الحديث قد ينحصر في وظيفته التقنيّة أو الاقتصاديّة فقط. وكان يدعو إلى العودة إلى الوجود الأصيل وإلى الحريّة الداخليّة.

أين نحن اليوم من كلّ هذا؟ في بعض الأيّام، يصعب علينا أن نُلقي نظرة واثقة نحو المستقبل. ولأولئك الذين يؤمنون، يصعب أحيانًا رؤية تحقيق أي مخطّط إلهيّ. نعم، المستقبل ليس واضحًا، وغالبًا ما يكون مقلقًا. ما الذي سيحمله الغد؟ عالمنا، لبنان، مجتمعاتنا، وضع كوكبنا...؟ ماذا نرى أمام أعيننا؟ نرى اضطرابًا مناخيًّا يبدو أنّنا غير قادرين على كبحه، مع حرائقه، وفيضاناته وارتفاع درجات الحرارة المستمرّ، والهجرات المصاحبة لحروب بعيدة أو على أبوابنا وعلى أراضينا، نرى أنّها قد تدفع العالم نحو الهاوية، وصراعات في أماكن كثيرة أخرى من الكوكب، واضطهادات دينيّة، ونظامًا ليبراليًّا جديدًا لا نستطيع أو لا نريد

السيطرة عليه ويترك الكثيرين على هامش الطريق، ونرى ازديادًا للشعبويّة والتطرّف، وتكاثر الديمقراطيّات غير الليبراليّة، إن لم يكن الأنظمة الاستبداديّة والتوتاليتاريّة في كلّ مكان تقريبًا، ونظامًا عالميًّا مهدّدًا بعودة الإمبراطوريّات، ونموذجًا ديمقراطيًّا محلّ نزاع متزايد، ثمّ في كثير من البلدان، نرى مجتمعاتٍ ضعيفة ومقسّمة، يصعب فيها الحوار، وعنفًا دائمًا قريبًا. ونحن نعلم جيّدًا أنّه بمجرّد أن يتجذّر العنف في حياتنا وشوارعنا فليس من السهل التخلّص منه.

في كلّ مكان، يبدو الأفق مسدودًا. ويزيد وقع الحروب من شعورنا بالدمار الذي يهدّد كوكب الأرض، إلى درجة أنّ القلق الجيوسياسيّ يبدو وكأنّه يهمّش الطوارئ البيئيّة. يبدو أنّ الثورة اليوم تنتمي أكثر إلى المعجم التكنولوجيّ، مع دخول البشريّة في الحالة الرقميّة الجديدة، أكثر منها إلى المفردات السياسيّة. أمّا المرونة، تلك القدرة على تجاوز المِحَن، التي غالبًا ما منحناها للبنانيّين، وربّما أكثر من اللازم، فتبدو كإحدى أشكال الرجاء النادرة. قبل بضع سنوات، في العام ٢٠١٥، أضاء البابا فرنسيس في رسالته *Laudato Si* «كن مسبَّحًا»[٣] الروابط الموجودة على الساحة العالميّة بين الأزمات المختلفة التي نعيشها ونتخبّط فيها: الأزمة الاجتماعيّة، والأزمة البيئيّة، والأزمة الروحيّة. نعم، «كلّ شيء مرتبط»، كما كان يحبّ أن يكرّر، مضيفًا أنّ الأزمة هي لحظة اتّخاذ خيار. يمكننا أن نخرج منها أفضل أو أسوأ، لكن لا يمكن أن نخرج منها كما كنّا.

نحن نعيش في زمن يبدو فيه أنّ القادة حول العالم، أحيانًا ممّن يفتقرون إلى الضمير والأخلاق، تقودهم فقط مصالحهم وأهواؤهم الشخصيّة المتخفيّة أحيانًا وراء قناع الوطنيّة. يمارس هؤلاء القادة سلطتهم بعنف، ويتلاعبون بالتواصل والإعلام قدر ما يستطيعون. ويبدو المجتمع الدوليّ أكثر فأكثر كمفهوم فارغ من المعنى، بينما فقد القانون الدوليّ الكثير من سلطته. وتقلّص دور المنظّمات متعدّدة الأطراف بشكل كبير، في حين تفتقر دول كثيرة إلى القيادة السياسيّة بسبب ضعفها الاقتصاديّ والعسكريّ.

وعلى صعيد آخر، يُثير تطوّر التقنيّات من كلّ نوع مزيجًا من الإعجاب والقلق. بالطبع، كيف يمكننا ألّا نفكّر هنا بالقضايا التي يطرحها هذا التطوّر، على سبيل المثال، الذكاء الاصطناعيّ؟ فالتطوّرات هائلة، وسريعة بشكل متزايد. إنّها تعد بالكفاءة والابتكار، لكنّها تثير تساؤلات حول قدرة الإنسان على التحكّم بها. وأكثر من ذلك، فهي تسائلنا حول التغيّرات

3. Pape François, *Lettre encyclique Laudato Si', sur la sauvegarde de la Maison commune*, 24 mai 2015, édition présentée et commentée par le CERAS, Bruxelles, Lessius éditions, 2020.

التي تحدثها في طبيعتنا الإنسانيّة نفسها، مثيرة تساؤلات حول قيمة الحكم، والمسؤوليّة الأخلاقيّة، والحرّيّة الداخليّة. كيف نحافظ على الروح النقديّة في عالم مشبع بالبيانات؟ ناهيك عن العديد من القضايا الأخلاقيّة الأخرى التي يطرحها تطوّر التقنيّات والمفاهيم، مثل تلك المتعلّقة ببداية الحياة ونهايتها. وتصبح هذه القضايا أكثر حساسيّة لأنّ مجتمعاتنا لم تعد تمتلك في الغالب تصوّرًا مشتركًا للإنسان، أي قاعدة مشتركة لفهم ماهيّة الإنسان. ومن هنا، تجعل هذه التغيّرات الكبرى أماكن التفكير والتنشئة أشدّ ضرورة.

تجدر الإضافة الى ذلك – وهذا ليس بجديد – تغيّر علاقتنا بالزمان والمكان. نحن «مواطنون» في عالم أصبح فيه المكان أقلّ أهميّة. لقد غلبت السرعة. وأولئك المدافعون عن نمط حياة آخر الذين يرغبون في إعادة الزمن إلى مكانته يجدون صعوبة كبيرة في إيصال صوتهم، على الأقلّ في محاولة تغيير أنماط حياتنا التي اعتادت من الآن وصاعدًا على أن يكون كلّ شيء متاحًا بسرعة .[4]

من ثمّ، هناك الصور والشاشات. في مجتمعنا المترابط بشكلٍ مفرط، تحتلّ الصورة مكانة مهيمنة – ونحن نعلم ذلك جيّدًا، نحن الذين نقضي وقتنا في النظر إلى هواتفنا المحمولة –، فهي تعمل كوسيلة رئيسيّة للتواصل، والمعلومات، والتأثير العاطفيّ. الصور الدائمة الوجود تشكّل إدراكنا للواقع، وتحفّز ذاكرتنا الجماعيّة، وتحدّد هويّتنا الشخصيّة والاجتماعيّة، مؤثّرةً على تفاعلاتنا ومشاعرنا.

في العام ١٩٩٨، تحدّث العالم الاجتماعيّ والفيلسوف ذو الأصل البولندي زيجمونت باومان Zygmunt Bauman عن عصرنا باعتباره عصر «الحداثة السائلة»، بعد مرحلة «ما بعد الحداثة»، تلك الحداثة السائلة التي تجعل هشاشة الظروف الاقتصاديّة والاجتماعيّة تدفع الرجال والنساء إلى النظر إلى العالم كمجموعة من الأشياء القابلة للرمي ولاستخدامها مرّة واحدة، بما في ذلك البشر أنفسهم[5]. كونهم يعيشون مضطربين، قلقين، وغير واثقين من أنفسهم، يجد الناس صعوبة في بناء مجتمع، ويبحثون عن الأمان في هويّة مصمَّمة لإبقاء الآخرين على مسافة. وفقًا له، نحن نعيش في زمن تفكّك الروابط وأصوليّة الهويّة. ويصف الكاتب مجتمعًا بلا معالم ثابتة حيث يُجبَر الأفراد على التكيّف المستمرّ مع التغيير.

4. Cf. Carl Honoré, *Eloge de la lenteur*, Marabout, 2013, 288 p. et Pierre-Yves Sansot, *Du bon usage de la lenteur*, Rivages Poche, 2000, 224 p.
5. *Liquid Modernity*, Polity Press, 2000.

يمكننا أن نُضيف إلى هذا المشهد العديد من العناصر الأخرى التي تحدّد العصر الذي نعيشه والتغيّرات السريعة المتزايدة التي تشكّله. ونحن إذ نلاحظ هذه التطوّرات، وبينما لم يعد هناك الكثير من المدافعين عن فكرة التقدّم، يمكننا القول إنّ عالمًا قديمًا قد اختفى، مع ثقافته المرتبطة به، ومع معالمه وتقاليده، وأنماط تفكيره. يبدو المستقبل أكثر تهديدًا من كونه وعدًا مضمونًا بسعادة قادمة. نحن الآن أكثر ارتباطًا بالخوف من الكوارث (العسكريّة والصحيّة والبيئيّة...) منه بالرجاء في عالم جديد.

لكن في الواقع، أصدقائي الأعزّاء، يجب ألّا يفاجئنا تغيّر العالم. فهذا أمر طبيعيّ ولا مفرّ منه. كما هو الحال في كلّ عصر، التغييرات هي مزيج من الأمور الجيّدة والسيّئة، من التهديدات والفرص. وبطريقة أو بأخرى، يمكن القول إنّ التحدّيات تظلّ هي نفسها دائمًا مع اختلاف التفاصيل. لكن في هذه الأزمنة التي نعيشها، نرى أنّ السؤال الخاصّ يكمن في الإنسانيّة نفسها. كيف تبدّل التغييرات التي ذكرتها لتوّي إنسانيّتنا، بل كيف تؤثّر عليها ؟ أيّ نوع جديد من الإنسانيّة يظهر أمام أعيننا؟ وأمام هذه التغييرات، ما هي مسؤوليّة الجامعة؟ اسمحوا لي ببضع كلمات عفويّة حول هذه النقطة والتي لا تدّعي الشموليّة أو الإجابة الكاملة.

في أثناء تسلّمه جائزة نوبل للأدب عام ١٩٥٧، أشار ألبير كامو Albert Camus إلى التحدّي الذي تواجهه الأجيال القادمة، متحدّثًا عن كلّ أولئك الذين حاربوا مثله لوضع حدّ للوحشيّة النازيّة وقال: «لقد اضطروا إلى ابتكار فنّ العيش في أوقات الكوارث ليولدوا مرّة ثانية ومن ثمّ يكافحوا، بوجهٍ مكشوف، ضدّ غريزة الموت الفاعلة في تاريخنا. (...) كونها وريثة تاريخ فاسد تتداخل فيه الثورات المنهارة، والتقنيّات المجنونة، والآلهة الميّتة والأيديولوجيّات المنهكة، حيث تستطيع قوى رديئة اليوم تدمير كلّ شيء لكنّها لم تعد تعرف كيف تُقنع، وحيث انخفض الذكاء ليصبح خادمًا للكراهية والاضطهاد، كان على هذا الجيل، في ذاته ومن حوله، أن يعيد بناء بعض ما يشكّل كرامة العيش والموت من خلال مواقفه الرافضة وحدها. أمام عالم مهدّد بالتفكّك، حيث يهدّد أولئك الكبار الذين يوجّهون أصابع الاتّهام إلينا بإنشاء ممالك الموت إلى الأبد، يعلم هذا الجيل أنّه يجب عليه، في نوع من سباق محموم ضدّ الزمن، إعادة السلام بين الأمم بطريقة لا يكون هذا السلام سلام عبوديّة، وإعادة التوفيق بين العمل والثقافة، وبناء فلك تحالف مع جميع البشر. ليس من المؤكّد أنّه سيتمكّن يومًا من إنجاز هذه المهمّة الضخمة، لكن من المؤكّد أنّه حقّق بالفعل رهانه المزدوج على الحقيقة والحرّيّة في كلّ أنحاء العالم، ويعرف بالمناسبة كيف يموت بلا كراهية من أجل تحقيق ذلك». وأضاف

ألبير كامو: «كلّ جيل، بلا شكّ، يعتقد أنّه مكلّف بإعادة تشكيل العالم. لكن جيلي يعلم أنّه لن يعيد تشكيله. ومع ذلك، ربّما تكون مهمّته أعظم. فهي تتمثّل في منع العالم من التفكّك».[٦] أصدقائي، هذه الكلمات البسيطة والبصيرة، تبدو وكأنّها كُتبت لليوم، ويمكن للأجيال الحاليّة أن تتبنّاها اليوم كخطّ حياة. فبالنهاية، هذا هو التحدّي المركزيّ لعصرنا ولوجودنا.

ماذا يعني اليوم «منع العالم من التفكّك»؟ بالطبع، يمكن أن يشمل هذا العديد من الوقائع. ببساطة، هذا يعني منع العالم أن يصبح مجرّدًا من إنسانيّته. اليوم، يبدو أنّ الزمن قد تقلّص. فالأزمات المناخيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة تتعاقب. إنّها موجودة. ويبدو أنّ لبنان، أكثر من كثير من الدول الأخرى، سبق غيره وعرف الانحدار نحو الهاوية. أمام الموجة التي تتصاعد والتي ستهبط حتمًا على العالم، وأمام إعلان المصائب الحاضرة والمستقبليّة: «نينوى ستُدمَّر»[٧]، فماذا نفعل؟ أمام العواصف التي تبدأ حتمًا في إسقاط كلّ شيء، كيف سنتصرّف؟ هل نظلّ منكفئين ومستسلمين للقدر؟ هل نلوم الآخرين؟ أم نحتمي معتقدين أنّنا سنكون من بين من ينجو من الأسوأ؟ أليس الأجدر أن نقف صامدين أمام الموجة، من دون أن تجرفنا؟ وأن نساعد الآخرين أيضًا على الثبات، كي لا يفقد العالم إنسانيّته في خضمّ التغييرات العميقة القادمة؟ هنا يتوجّب على الجامعة أن تؤدّي دورها.

سيقول لي البعض – وهم على حقّ – إنّ بلدنا، لبنان، طوال سنوات الحروب والأزمات، اقترب من حافّة الانحدار، وعانى، وتعايش مع فقدان الإنسانيّة، ومع اللاإنسانيّة. لا شيء جديد. وسيقول آخرون، بعد كلّ هذه المآسي المتكرّرة، من الطبيعيّ أن نستمتع بالحياة، وأن نؤمن أنّ الحداثة المفتوحة ستفتح مساحات جديدة للمتعة المستحقّة، واللامبالاة المشروعة، والثراء الضروريّ، حتّى وإن لم تكن مساحات منظّمة وتبدو أحيانًا غير لائقة.

ومع ذلك، نحن بالفعل في فترة تهدّد الإنسانيّة على مختلف الأصعدة التي ذكرتها للتوّ. المسألة هي أن نبقى بشرًا، بينما يمكن للتغييرات والخوف وعنفه أن تجرّدنا من الإنسانيّة بسرعة كبيرة. من أجل أنفسنا والآخرين، علينا أن نستمرّ في الإيمان بأنّ تاريخ الإنسان يُصنَع. ومن ثمّ، فلنسأل أنفسنا: هل للخيارات التي نتّخذها، مهما صغرت، قيمة عالميّة؟ هل تأخذ في الاعتبار خيرًا أوسع من خيرنا الشخصيّ؟ وهل تساهم هذه الخيارات في الحفاظ على الإنسانيّة حتّى في ما هو مخفيّ ومتواضع وفقير؟ أمام مستقبل التاريخ المظلم، هل نحن قادرون على

٦. كلمة ألبير كامو Albert Camus خلال تسليم جائزة نوبل للأدب، ستوكهولم، كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٥٧.
٧. يونان ٣، ٤. النبّي يونان يُعلن لسكّان نينوى بأنّ مدينتهم ستُدمَّر بعد أربعين يومًا.

التجدّد الداخليّ الضروريّ وعلى الالتزامات الحازمة التي ذكرتها أعلاه؟ أعتقد ذلك. حتّى وإن تمّ ذلك غالبًا عبر أعداد صغيرة، فهي مثل الخميرة في العجين، محفّزات للتغيير.

أصدقائي الأعزّاء، لقد احتفلنا بذكرى مرور ١٥٠ عامًا على تأسيس جامعتنا. ويمكننا أن نفخر بحقّ بتاريخها في خدمة شباب لبنان، هذا التاريخ الذي نقش فيه الكثير من الناس أسماءهم، أحيانًا بحروف من دم، ليبقى هذا المشروع على مستوى إنسانيّ عالٍ. اسمحوا لي هذا الصباح أن أستذكر وأُكرّم الأب ألبان دي جيرفانيون Alban de Jerphanion، رئيس الجامعة من ١٩٥٨ إلى ١٩٦٥، وعميد معهد الهندسة العالي في بيروت، الذي اغتيل على يد قنّاص منذ خمسين عامًا تمامًا، في ١٤ آذار/مارس ١٩٧٦. المسؤوليّة تقع علينا جميعًا في الاستمرار. علينا أن نضمن أن تعتني جامعتنا بإنسانيّة اليوم، وبالتالي بإنسانيّة الغد. والأزمنة التي نعيشها، هذه الأيّام المليئة بالنار والدم، تجعل هذا الواجب الوجوديّ ضروريًّا أكثر من أي وقت مضى.

بالتأكيد، يجب أن تكون جامعتنا جامعة ممتازة. هذا أمر ضروري. وأقول ذلك ببساطة: أعتقد أنّنا لا يجب أن نخجل ممّا نقدّمه. بالتأكيد، يجب أن تكون في الصفوف الأماميّة في مجال البحث العلميّ، وفي دمج أحدث الابتكارات التقنيّة، سواء في برامجها أو في طريقة عملها نفسها. ونحن نعمل على ذلك. بالتأكيد، يجب أن تكون جامعتنا منفتحة على العالم، ومستندة إلى عرض أكاديميّ ثلاثي اللغات (الفرنسيّة والإنجليزيّة والعربيّة)، ومتّصلة بأفضل الأماكن التي يمكن فيها مواصلة المشاريع الفكريّة، والجامعيّة، والمهنيّة، والثقافيّة، والتقنيّة البارزة وتنميتها. نعم، كلّ ذلك ضروريّ ويتطلّب منّا الحرص اليوميّ على جودة ما نقدّمه، ويفترض التساؤل وإجراء التجديدات اللازمة سواء في عروضنا وطرق تعليمنا، أو في الوسائل المطلوبة لتحقيق هذا الهدف. فجامعة لا تسعى إلى هذه الطموحات وهذه الأهداف لن تؤدّي رسالتها.

لكن كلّ هذا، أصدقائي، لا يمكن أن يكون كافيًا. كلّ هذا لا يكفي إذا لم يبنِ الإنسان، إذا لم يهتمّ بإنسانيّتنا، إذا لم يكن في خدمة كلّ طالب بالطبع، ومن خلاله في خدمة المجتمع البشريّ ككلّ. لا يمكن للجامعة أن تكون مجرّد مكان لإنتاج المعرفة والمهارات. يجب أن تكون مكانًا لتجربة داخليّة.

في هذا العمل الخفيّ والذي لا يكون دائمًا مرئيًّا، على ماذا ينبغي أن نكون منتبهين؟ أنا متأكّد أنّ لديكم جميعًا عناصر إجابة مرتبطة بتاريخكم الشخصيّ، وتجربتكم المهنيّة

والأكاديميّة، وبتصوّركم لماهيّة الحياة الناجحة والحياة المرتبطة بالآخرين. اسمحوا لي فقط أن أذكر باختصار، ومن دون ترتيب معيّن، إلى جانب الأهداف الاستراتيجيّة الضروريّة لمؤسّسة كبيرة مثل جامعة القدّيس يوسف في بيروت، بعض المواقف التي يجب، برأيي، أن تكون أسسًا لمغامرتنا الإنسانيّة ولمشروعنا الجامعيّ، ما يجعلها متميّزة، أصيلة، ومصدر فخر للجامعة.

- أوّلًا، **الاهتمام بالترسيخ، والحياة الداخليّة، والعمق**. تنشئة رجال ونساء متجذّرين. أنتم تعرفون المزمور ١١: «إذا انقلبت الأعمدة، فالصدّيق ماذا يفعل؟» بينما يسير كلّ شيء بسرعة، ويتغيّر البلد بسرعة، وتتشتّت العائلات، ويُمسي المستقبل غامضًا، يكمن الرهان في التمسّك بالجذور، والأُسُس الضروريّة أكثر من أي وقت مضى، كي لا نكون كقشّ يجرّه كلّ موج، ويجرفه كلّ تيار. هذه الأسس، وهذه الجذور، تتعلّق بتاريخنا الشخصيّ، والدينيّ، والجماعيّ، والوطنيّ بالطبع، لكن الأهمّ من ذلك تتعلّق هذه الجذور بإدراك وجود إنسانيّة مشتركة مع كلّ إنسان، خصوصًا إذا كان مختلفًا. هذه الأسس، وهي علامة تُشير إلى إنسانيّتنا، تفترض بناءً داخليًّا حقيقيًّا. يجب أن تشجّع الجامعة، وتدعم، وتثير، وتهتمّ بالذات الداخليّة، حيث تتشكّل التأمّلات الراسخة والقناعات التي تلزم العمل. اليوم، أصبحت مساحات الذات الداخليّة الحقيقيّة نادرة في عالمنا. ومع ذلك، فهي ضروريّة لتكوين الإنسان، ولتمكينه من التمييز. فلنكن على بيّنة من الأمر كي لا نُخطئ التقدير، من أجل الحفاظ على الثبات ونبقى واقفين، يصبح الهيكل الداخليّ أكثر قيمة وفائدة في الواقع من كلّ الدروع التي لا تحمينا كثيرًا وتعزلنا.
- الموقف الثاني: **ألّا تكون النفس تابعة للمعتاد المألوف**. أنتم تعرفون ما قاله شارل بيغي Charles Péguy: «ثمّة ما هو أسوأ من أن يكون لديك فكر سيّء، وهو أن يكون لديك فكر جاهز مسبقًا. ثمّة شيء أسوأ من أن تكون لديك نفس سيّئة، أو حتّى أن تصنع لنفسك نفسًا سيّئة، وهو أن تكون لديك نفس جاهزة مسبقًا. وثمّة شيء أسوأ من أن تكون لديك نفس منحرفة، وهو أن تكون لديك نفس تابعة للمعتاد»[8]. هذه التجربة، تجربة الاستقرار والاعتياد، تخصّ كلّ واحد منّا. ألّا تكون النفس تابعة للمعتاد فهذا يعني امتلاك عقل متفتح، فضوليّ، قادر على استقبال أفكار جديدة وآراء مختلفة ودمجها. لكنّ هذا يفترض أيضًا وعيًا حيًّا. ألّا نغفو. أحد المخاطر هو أن نعتاد على

8. Charles Péguy, *Note sur M. Bergson et la philosophie bergsonienne suivie d'extraits de la Note conjointe sur M. Descartes et la philosophie cartésienne*, Préface de Camille Riquier, Paris, Paris Ouest, 2020.

ما يحدث، بسبب الملل والرضا الذاتيّ والمصلحة المخفيّة، وترك الأمور تسير من دون تدخّل، لأنّ الأمر لا يعنينا مباشرة أو لأنّه سيكلّفنا شيئًا، بكلّ معنى الكلمة. والأخطر من ذلك، فقدان القدرة على الإيمان بمستقبل ممكن. نحن بحاجة إلى من يساعدنا على إبقاء وعينا الشخصيّ والوطنيّ حيًا، ليتغذّيا بطريقة أخرى غير الشعارات السهلة، أو مجرّد السباق سعيًا وراء النجاح الدنيويّ. الاهتمام بالحقيقة والاستقامة واحترام القواعد التي تؤسّس كلّ حياة في المجتمع، أمور لا يمكن أن تكون موضوع تسويات. نحن نعلم أنّ هذا صراع نخوضه في كلّ لحظة، وأنّه رهان شخصيّ ووطنيّ على حدّ سواء لكي ينهض هذا البلد. يجب على المجتمع الجامعيّ وتجربة الحياة الطلّابيّة نفسها أن تساعد، بتواضع لكن بجديّة، في تحقيق ذلك.

- بعد ذلك، **يجب أن نتمتّع برؤية شاملة**. لقد شدّد البابا لاون على هذا الرهان ، مخاطبًا طلّاب الجامعات الحبريّة في روما في تشرين الأوّل/أكتوبر الماضي. أقتبس قوله: «اليوم أصبحنا خبراء في تفاصيل الواقع الدقيقة، لكنّنا عاجزون عن امتلاك رؤية شاملة مرّة أخرى، رؤية تربط الأشياء معًا من خلال معنى أكبر وأعمق». وأضاف: «هذه هي نعمة الطالب والباحث والعالم: أن يحصل على نظرة واسعة وبصيرة، لا تبسّط القضايا، تتغلّب على الكسل الفكريّ، وبالتالي تهزم الضمور الروحيّ. (...) تبغي التجربة المسيحيّة (...) أن تعلّمنا كيف ننظر إلى الحياة والواقع بنظرة موحّدة، قادرة على احتضان كلّ شيء مع رفض المنطق الجزئيّ»[٩] وهذا يتناغم مع ما كان يحبّ تكراره منذ أكثر من خمسين عامًا الأب بيدرو أروبيه Pedro Arrupe، وكان آنذاك الرئيس العام للرهبنة: «التفكير بطريقة شاملة، والتصرّف محليًا، وأنا مقتنع أنّ هذه الطريقة في الرؤية لها مستقبل حقيقيّ». وهذا ما نحاول القيام به في جامعة القدّيس يوسف في بيروت وما يجب أن نستمرّ في القيام به.

- الموقف الرابع (أطمئنكم، لم يتبقَّ سوى الخامس): **معرفة الإصغاء والكلام**. هذه هي الخطوة الأولى للعيش مع الآخر وفي المجتمع. للأسف، ليس هذا بالأمر البديهيّ. ونحن نعلم ذلك جيّدًا. نحن نختبر ذلك يوميًّا عندما يكون من الصعب علينا ألّا نردّ مباشرة أو نقطع كلام الآخر للدفاع عن أنفسنا أو نفرض وجهة نظرنا عليه من دون أن نعرف دائمًا ما يريد قوله حقًّا. الإصغاء ليس أبدًا علامة ضعف؛ إنّه المكان الذي يعترف بإنسانيّة

٩. عظة البابا لاون الرابع عشر، الاحتفال بالقدّاس الإلهيّ مع طلّاب الجامعات الحبريّة، الاثنين ٢٧ تشرين الأوّل/أكتوبر ٢٠٢٥.

الآخر ويحترمها. هو يتيح خلق مساحة يمكن أن يولد فيها شيء بين الآراء المختلفة. وهذا يفترض قبول التعقيد، وتفضيل دقّة التعبير على الخطابات بالأبيض والأسود، ورفض الثنائيّة المتطرّفة أو القدريّة التي تثبط العزيمة، وعدم الوقوع في مقارنة مميتة تسبّب الكثير من الأضرار في مجتمعاتنا. يجب على الجامعة أن تساعد الطلّاب على الإصغاء، ليتمكّنوا من الكلام بشكل صحيح، بلا خوف، مع احترام الآخر دائمًا. ويجب أن تستمرّ الجامعة أكثر فأكثر في أن تكون مكانًا للنقاش وتقديم الاقتراحات في خدمة تحسين مؤسّساتنا والحياة الديمقراطيّة والمواطنة في بلادنا.

- وأخيرًا، وسأنهي بذلك: يجب أن تهدف التنشئة، بطريقة أو بأخرى، الى **الاهتمام بالآخر**، وخدمة المدينة. تشجّع جامعة القدّيس يوسف في بيروت، بطرق مختلفة، خلال فترة الدراسة، على فرص الانخراط الفعليّ في الخدمة. المهارات المكتسبة لا يجب أن تُحفظ فقط لفائدة الفرد الشخصيّة بل يجب أن تكون دائمًا ذات هدف أوسع. هذا رهان ليس سهلًا، لكنّه الهدف المقصود عند استخدام الصيغة المعروفة «تنشئة رجال ونساء من أجل الآخرين». بعد خروجه من الجامعة، يجب على كلّ فرد مزوَّد بغنى ما تعلّمه واكتسبه أن يسأل نفسه كيف سيهتمّ بالإنسانيّة.

كلّ هذه المواقف وغيرها أيضًا الأساسيّة والضروريّة والتي تستند إلى البيداغوجيا الإغناطيّة هي، أكثر من أي وقت مضى، معاصرة وملائمة للفترة الصعبة التي نعيشها. سيّداتي وسادتي، في هذه الأوقات الغامضة، حيث كلّ واحد منّا مضطرب، والبلد يسقط مرّة أخرى، يجب أن نقف صامدين وندعم بعضنا البعض لنستمرّ في العناية معًا بهذه الإنسانيّة الثمينة والهشّة. ومن أجل ذلك ستؤدّي جامعة القدّيس يوسف رسالتها بالكامل، ولن تكون أبدًا جامعة مثل غيرها.

فليعتنِ القدّيس يوسف بنا دومًا.

تحيا جامعة القدّيس يوسف في بيروت ! ويحيا لبنان!